عبد القادر الجزائري

(١٨٠٧-١٨٨٣م=١٢٢٣-١٣٠٠هـ)

الفقيه المجاهد

obeikan.com

كان ظلام القرنين التاسع عشر والعشرين، حالكا فى عالمنا العربي والإسلامي. ففى أولهما انحدرت الدولة العثمانية إلى أدنى درك، وتفتتت فى مطلع الثانى، ورزح العالمان العربى والإسلامى تحت نير الاستعمار لغربى.

وما «عبد القادر الجزائرى»، سوى نجم سطع ولمع وتألق فى سماء ذلك الزمن الحالك السواد.

وبيئتنا العربية غنية بالشخصيات الفذة التى طبعت عصرها، وكان لها تأثيرها فى معاصريها وفى الأجيال اللاحقة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف، وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبست مضيئة فى ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافزا متجدداً لذوى النفوس الأبية الرافضة للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نموذجا يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يعرف بالجزائر، والجزائر المعاصرة تبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير البطل «عبد القادر الجزائرى».

حياة هذا الأمير بما تمثله من قيم هى تاريخ الجزائر المعاصرة، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

لقد عبر الأمير «محمد عبد القادر» عن موقف الشعب الجزائرى الرافض للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته فى إنشاء دولة حديثة فى إطار قيمة العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيئته البار، ونتاج ثقافته الأصيلة، ولسان عصره الصادق.

لم يسع عبد القادر الجزائرى إلى الإمارة، بل هى التى سعت إليه، عندما بحثت الجزائر عن شخص يقودها وهى تواجه خطر محو هويتها وكيانها، فى هذه اللحظات الحاسمة يفتش الوطن عن الشخص الأمة الذى يستطيع أن يستوعب الأمة فى كيانه ويجسدها بأقواله وأفعاله، وكان الاختيار موفقاً، وحتى يُعطى الأمير الشرعية

لاختيار وجهاء الوطن له أصر على البيعة الشرعية التقليدية، فكانت البيعة الخاصة ثم العامة. وهذا أول درس يعطيه الأمير لكل المتطلعين إلى السلطة فى وطننا العربى، فالسلطة هى اختيار شعبى بإرادة حرة وبإجماع وطنى، وليست كنزاً يستأثر به أصحاب الشوكة.

رمز المقاومة الوطنية:

ولم تغير السلطة شيئاً من نمط حياة الأمير، لم يغير الجاه والثروة والقوة من طبيعته ولم تفصله عن الإنسان العادى، ظل بين شعبه لا يفصله عنه أى فاصل، أى أنه تجاوز قرون الظلام وعاد إلى شفافية السلطة فى زمن الخلفاء الراشدين، حين لم يكن بإمكان أحد أن يميز الخليفة عن باقى أفراد الشعب.

وخلال خمسة عشر عاما تولى فيها الأمير السلطة لم يكن ينفرد بالقرارات المصيرية، بل كان يستشير العلماء ورؤساء القبائل، وأخذ فتاوى رجال الدين فى مواقفه، ليؤكد أن الحاكم ليس صاحب القرار الوحيد، وإنما القرار هو مسؤولية الشعب من خلال ممثليه المعترف بهم.

وحين وجد الأمير أبواب المقاومة قد أُغلقت أمامه، ولم يعد قادرا على الوفاء بأمانة السلطة، وهى حمل راية الجهاد لإنقاذ الوطن، فضل بعد أن استشار رفاقه أن يتخلى عن السلطة ويستسلم للعدو مرفوع الرأس، ولم يرض -كما رضى غيره- أن يحتفظ بمظاهر السلطة تحت حراب الأجنبي، فهو يرى أن السلطة أمانة ورسالة، وعندما يعجز عن تحملها، فإن التمسك بها يصبح خيانة وتحويلا لها من التكليف إلى التشريف. وكانت هزيمته فى المعركة انتصاراً حقيقياً لشخصه، وتحويل اسمه إلى رمز خالد للمقاومة الوطنية.

سيرة حياة وجهاد:

عاش الأمير «عبد القادر» ثلاث مراحل متميزة بخصوصيتها وأحداثها ودلالاتها، الأولى قضاها فى طلب العلم، وتعرف فيها على أوضاع البلاد العربية من

خلال رحلته لأداء فريضة الحج، وقضى الثانية فى الجهاد ومقاومة العدو، وكانت الثالثة مرحلة غربة، حيث عاش أسيراً فى فرنسا، ومجاهدا محتبسا فى بورصة بتركيا ثم دمشق.

وُلِدَ الأمير «عبد القادر» فى (١ من رجب سنة ١٢٢٢هـ/ ٦ سبتمبر ١٨٠٧م) بمقر أسرته بالقيطنة، الواقعة على سفح جبل إستانبول على الجانب الأيسر لوادى الحمام، وعلى بعد حوالى ٢٠كيلومترا عن مدينة معسكر. وكان رابع إخوته.

ونشأ فى رعاية والده الأمير «محيي الدين الحسينى» الذى يتصل نسبه بالإمام الحسين، وكان والده مقدم الطريقة القادرية وشيخ زاوية [القيطنة]، وتلقى تعليمه الأولى فى كُتاب الزاوية عن أبيه وبعض شيوخها، فأجاد حفظ القرآن، واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية، ثم ارتحل إلى (آرزيو) وهو فى الخامسة عشرة من العمر ليدرس على يد قاضيها الشيخ «أحمد بن الطاهر»، وانتقل منها إلى مدينة (وهران) لينتسب إلى مدرسة [أحمد بن خوجة] لمخصصة لأبناء الأعيان، حيث أمضى فيها ما يقرب من سنة انكب خلالها على توسيع معارفه اللغوية ومعلوماته الفقهية، وصقل ملكاته الأدبية والشعرية.

واشتهر فى السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية، حتى كان يُشار إليه بالبنان بين الفرسان، لمهارته فى ركوب الخيل.

وفى سنة (١٨٢٣م) زوجه والده من ابنة عمه «لالاخيرة»، وصحبه فى (نوفمبر سنة ١٨٢٥م)، إلى الديار الحجازية، لأداء فريضة الحج والزيارة، ومرا فى رحلتهما بالإسكندرية وزارا القاهرة، فى عهد «محمد على» باشا الذى أكرمهما وحاشيتهما ثم واصلا رحلتهما إلى الحجاز عن طريق السويس، وعرجا بعد الحج على دمشق فأمضيا فيها زمناً، ثم سارا منها إلى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى (مؤسس الطريقة القادرية)، وغادرا بغداد نحو دمشق ومنها الى المدينة المنورة ومكة لتأدية مناسك الحج والعمرة، ثم عادا إلى وطنهما فى أوائل سنة (١٨٢٨م).

وازداد «عبد القادر» بعد هذا السفر شغفاً بالعلم، فاعتزل لتحصيله، ولزم الخلوة، حيث عكف على مطالعة كتب العلم والفلسفة، ودرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وأرسطاطاليس، وتعمق فى درس الفقه والحديث والجغرافيا والفلك والتاريخ، وكتب العقاقير.

مبايعة الأمير عبد القادر:

استولى الفرنسيون على الجزائر سنة ١٨٣٠م ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للبلاد، وإخراجها من أيدي العثمانيين، ورغم مقاومة القبائل سيطر الفرنسيون بقيادة (برمونت) على جبال الأطلس ومدينة (وهران)، وكان من نتيجة الاحتلال الفرنسى لتلك البلاد أن اختلت الأحوال فيها وسادت الفوضى، فاجتمع المرابطون ورؤساء القبائل، وفى مقدمتهم الأمير محيي الدين، وتشاوروا فى الأمر، فاستقر الرأي على الانضمام إلى سلطان مراكش «مولاى عبد الرحمن»، فدخلت الجزائر فى سلطانه، مما أدى إلى غضب الفرنسيين، وبعثوا إلى سلطان مراكش مهددين بالحرب إذا لم يسحب جنوده من الجزائر، فآثر الانسحاب.

واجتمع كبار الجزائريين إثر ذلك للتشاور فى الأمر، واستقر رأيهم على إقامة الأمير محيى الدين سلطانا على البلاد، وذهبوا إليه فى بلدته [القيطنة] حيث عرضوا عليه الأمر وأرادوا مبايعته، ولما أمسك عن الإجابة هددوا بقتله إن لم يقبل فاستجاب لرغبتهم، على أن تكون السلطة لولده عبد القادر، فقبلوا ذلك راضين مرضيين.

كان الأمير «عبد القادر» فى ذلك الوقت يحارب الفرنسيين فى حصن (فيليب) فبعثوا إليه وبايعوه، وسنه إذ ذاك ٢٥ سنة، تمت له البيعة على الجهاد عند شجرة الدردارة بسهل غريس فى (رجب ١٢٤٨هـ/ ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢م) وحصلت له البيعة العامة بمعسكر فى (١٧ رمضان ١٢٤٨هـ/ ٤ فبراير ١٨٣٣م) وعلى إثر مبايعته قصد إلى المسجد الجامع حيث صلى بالناس وخطب حاثا إياهم على الطاعة،

والعمل بمقتضى الشرع الشريف، والاقتداء بالخلفاء الراشدين(*).

وجمع كلمة القبائل، وضم بعضها إلى بعض لكى تقوى على مقاومة الفرنسيين وإخراجهم من البلاد. وخاض عدة وقائع فاز فيها عليهم، ولاسيما موقعة (وهران) التى انتصر فيها انتصاراً كبيراً، فهابه الفرنسيون. وأخذوا يخشون بطشه منذ ذلك الحين. وعقد قائدهم «ديمشيل» معه معاهدة صلح سنة (١٨٣٤م).

كرّ.. وفرّ:

ولما هدأت الأحوال، تفرغ الأمير «عبد القادر» لإصلاح الشؤون الداخلية فى بلاده، وواصل فى الوقت نفسه إعداد العدة لمواجهة الحرب، فأنشأ مصانع للأسلحة وصب المدافع وإنتاج البارود، ونظم الجيش مما أتاح له النصر فى عدة مواقع منها معركة المقطع فى (١٨ يونيو ١٨٣٥م) التى أرغم خلالها القوات الفرنسية على الرجوع إلى [وهران]. وبعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة هاجم الفرنسيون مدن الأمير عبد القادر الرئيسية فاستولوا على (معسكر) ثم (تلمسان)، لكن ذلك كان دافعا ليواصل الأمير ضغطه على القوات الفرنسية وتكبيدها خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد، مما اضطر الفرنسيين للصلح معه، لما تأكدوا من بسالته وقوة احتماله، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة (التافنة) فى (٣٠ مايو ١٨٣٧م) التى تقضى بتبادلهما التمثيل القنصلى، وبألا يسلم الأمير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية إلا بعد مشاورة فرنسا.

اهتمام بالشؤون الداخلية:

وجه الأمير عنايته بعد ذلك إلى إصلاح الشئون الداخلية لبلاده وبناء مؤسساتها، كما واصل الاستعداد العسكرى كعادته لمواجهة الطوارئ، وأنشأ مدينة تجارية سماها (تقدمة)، كما أنشأ كثيرا من المعاقل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه، وأنشأ

(*) الدكتور ناصر الدين سعيدونى، «عصر الأمير عبد القادر الجزائرى»، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى، الكويت، ٢٠٠٠، ص٢٠٤.

مصانع لإنتاج المدافع ومختلف الأسلحة فى تلمسان وغيرها، وعمل لاستخراج المعادن، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة، ونشر التعليم بالإكثار من المدارس، واعتزم إنشاء جامعة كبيرة فى (تقدمة) تجمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الحديثة، وضرب نقوداً فضية ونحاسية.

معارك وانتصارات:

وكان شديد التيقظ، دائم السهر على مصلحة بلاده، حريصاً على تفقدها بنفسه، ولكن الظروف لم تسمح باستقرار الأمن فى الجزائر، إذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على (قسنطينة) فى مد سلطانهم على المناطق المجاورة لها، برغم وقوعها فى حدود سلطة الأمير بمقتضى معاهدة (التافنه)، وعبثاً حاول الأمير حمل حكومة باريس على احترام المعاهدة، فأخذ فى تحصين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها، وعندما نشبت الحرب تمكن الأمير من دحر القوات الفرنسية وطردها إلى السواحل.

وعُظم الأمر على الحكومة الفرنسية، وأرسلت إلى قواتها المندحرة فى الجزائر نجدة كبيرة، فاستأنفت الهجوم على الأمير ورجاله، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب من جبال الأطلس، فتغلب الفرنسيون أول الأمر، لكن الأمير سرعان ما تدارك الموقف، وأعاد تنظيم رجاله ثم كرَّ على القوات الفرنسية، فما لبث أن هزمها واضطرها إلى الانسحاب.

وتوالت المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات، واضطرت فرنسا فى نهايتها إلى تغيير قائد قواتها فى الجزائر بقائدها القديم الجنرال (بوجيه)، وبعثت معه بإمدادات كثيرة من الجند والأسلحة، ولكنه لم يثبت فى هذه المرة أيضا أمام الأمير المغوار.

ولما رأى الأمير أن البلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب، أنشأ مدينة متنقلة سماها (الزمالة)، وهى مؤلفة من خيام تُقام على نظام شوارع المدن وتتبع الجيش فى حله وترحاله، حيث يعمل فيها الصناع، ويُحتفظ بالأسرى ويلجأ إليها المتعبون من

الجند، كما يقيم بها النساء والأطفال، وتعد الأسلحة للجنود العاملين. وقد انتفع الأمير بهذا النظام إلى حد كبير، حمل الفرنسيين على توجيه الجانب الأكبر من نشاطهم إلى حرمانه من تلك المدينة واستطاعوا الوصول إليها بواسطة بعض الخونة فأحرقوها، كما أحرقوا قبل ذلك مدينة (تقدمة) ونهبوا يوم ١٦ مارس ١٨٨٣م ما كان في (الزمالة) من مؤن ومعدات، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن كانوا بها.

حرب العصابات:

ولم يحقق الفرنسيون النصر النهائي على الجزائريين باستيلائهم على العاصمة المتنقلة (الزمالة)، وهذا ما أكده الأمير «عبد القدر» بنفسه في رسالته إلى المارشال بيجو بقوله: «إن الضرر الذي اعتقدت أنك ألحقته بنا لم يكن سوى بمثابة أخذ كأس ماء من بحر، وإن عملكم لا يتجاوز الأثر الذي يتركه الطائر عندما يلامس بجناحيه موجة من أمواج البحر».

واضطر الأمير «عبد القادر» بعد سقوط عاصمته المتنقلة (الزمالة) وتناقص عدد جيشه إلى ألفي فارس وعشرة آلاف من المشاة، إلى اتباع أسلوب الكر والفر، فكان يتنقل سريعا من مكان إلى آخر، ويباغت العدو على حين غرة، ثم يتراجع بعيداً، فأرسى بذلك أول تجربة كبرى في حرب العصابات في التاريخ الجزائري المعاصر، واجه أثناءها مطاردة ثماني عشرة فرقة عسكرية فرنسية طوال خريف وشتاء عامي (١٨٤٥ و ١٨٤٦م)، كما فُرض عليه الانتقال على ظهر جواده وبصحبة فرسانه آلاف الكيلومترات، تجول فيها من بلاد القبائل إلى جهات الريف بالمغرب الأقصى، ومن نواحي تلمسان إلى تخوم الصحراء بالعقيق والأغواط.

ومع استمرار الضغط الفرنسي عليه، طلب الأمير «عبد القادر» من أسرته التوجه إلى المغرب الأقصى، وكان يأمل أن يقف السلطان المغربي إلى جانبه فلم ينجده، في حين تلقى الفرنسيون نجدات كبيرة وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاونتهم ضده. لكن هذا كله لم يثن عزمه عن مواصلة الجهاد، فظل يقاتل بشجاعة

فى مختلف ميادين القتال التى شملت الجزائر كلها، حتى نهاية (سنة ١٨٤٦م).

وحاول الأمير أن يثنى سلطان مراكش عن محاربته مذكرا إياه بصداقتهما القديمة، وبما بين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية، ولكنه لم يستجب له وخيره بين التسليم، أو الرحيل إلى برارى الجزائر.

وعندما توجهت القوات المغربية لمحاصرته بنواحى ملوية، دخل معها فى ثلاثة اشتباكات دامية نواحى قلعة سلوان فى شهر [محرم ١٢٦٤هـ/ ديسمبر ١٨٤٧]. وعندما صمم المغاربة على مواجهته والقضاء عليه تنفيذا لمعاهدتهم مع الفرنسيين «للا مغنية» (١٨ مارس ١٨٤٥). عقد الأمير آخر اجتماع لمستشاريه.

حكمة قرار التسليم:

جمع الأمير «عبد القادر» رجاله على ظهور الخيل وفى ظلمة الليل حتى لا يفطن إليهم المغاربة أو ينتبه لأمرهم الفرنسيون الذين كانوا يراقبون تحركاتهم من بعيد. وخطب فيهم مصرحاً بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم، قال فى صوت كله إيمان وصبر: «لم نجد مستنداً نستند إليه إلا الله.. وصرنا نتأمل ونتيقن بعد المشورة أن المصير إلى جند الفرنسيين أولى إلى التولى للمغاربة، لأنهم لا عقد عندهم ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم أو مع عدوهم، الفرنسيون يعرفون قدر الرجال الأبطال، فيعطونهم قدرهم من التعظيم والحرمة ولو كانوا أعداء، فالميل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المتبدين (البدو) الذين لا يعرفون قدراً ولا يفرقون بين سليم وسقيم، ولقد وفيتم بما بايعتمونى عليه، وبذلتم جهدكم فى معاضدتى. أما وحالتنا الآن تقتضى التسليم، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشيين، والرأى لكم فى الحالين»، فأجابوا بأنهم على رأيه.

وحُددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة (١٨٤٧) للتوقيع على شروط التسليم، وفى مقدمتها أن يغادر الأمير وحاشيته البلاد إلى الإسكندرية أو مدينة بورصة التركية للإقامة بها، وكانت ليلة ممطرة، شديدة العواصف، فأناب الأمير رجلين من

خاصته وحملها خاتمة للتوقيع على الشروط فى معسكر الفرنسيين، وما أن علم القائد الفرنسى برغبة الأمير فى التسليم طبقاً لهذه الشروط حتى وافق فوراً. ولما ذهب الأمير بعد ذلك إلى المعسكر الفرنسى قوبل بالتكريم والاحترام.

ولم يكن توقف الأمير «عبد القادر» و لمجاهدين معه عن مقاومة العدو صادراً عن خوف أو تخاذل أو تخل عن أداء الواجب، وإنما كان بفعل تفوق العدو عدة وعدداً، وعداء الصديق وتخاذل الحليف، وتحول الأهل والقريب.

بداية رحلة الاغتراب:

وأبحر الأمير فى ٢٥ من ديسمبر، ومعه حاشيته البالغة ثمانين فرداً على سفينة حربية، أقلتهم إلى طولون، حيث قوبل الأمير بترحاب، وعرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفا مكرماً على حكومتها هو ومن معه، ولكنه لم يقبل، وأثناء ذلك وقع الانقلاب فى فرنسا وتحولت من ملكية إلى جمهورية، فطال الأخذ والرد بين الأمير والمسؤولين الفرنسيين الجدد، ثم وافقوا على مغادرته فرنسا إلى حيث شاء، على أن يتعهد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم إلى الجزائر، وكتب هذا العهد فى مارس (١٨٤٨م).

وكان الأمير يستعد للرحيل هو ورجاله عندما صدرت الأوامر من الجمهورية الفرنسية الجديدة باعتباره أسيراً، ثم زج به وبرجاله إلى السجن فى «أيبس»، فلبثوا فيه حتى أكتوبر (سنة ١٨٥٢)، حيث عكف الأمير على الكتابة والتأليف. وبعد أن زاره «نابليون» في معتقله ببضعة أيام، صدرت الأوامر بإطلاق سراح الأمير «عبد القادر» ورجاله، وأقام له «نابليون» مأدبة كبيرة في قصره، وأهدى إليه جواداً عربياً أصيلا، وفي ٢١ من ديسمبر (١٨٥٢م)، غادر الأمير فرنسا مودعا باحتفال كبير قاصداً مدينة بورصة في تركيا للإقامة بها حتى سنة (١٨٥٥م)، حيث انتقل في هذا العام للإقامة بدمشق، حيث قوبل بترحيب شعبى كبير، وأقام فيها بمبنى يدعى «العمارة» حيث تفرغ للقراءة ومراجعة كتب الفقه والتصوف والتفسير والحديث،

مقسماً وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسه العلماء والفضلاء.

موقف إنساني نبيل:

ومن المواقف الإنسانية المشرفة للأمير في أثناء إقامته بدمشق، حمايته للمسيحيين عندما اشتعلت الفتنة الطائفية ضدهم في لبنان عامة ودمشق خاصة سنة (١٨٥٦م)، لم يتردد الأمير في حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ففتح مقر إقامته وإقامة أتباعه لاستقبال النصارى المهددين في حياتهم، ويرجع إليه الفضل في إنقاذ حوالي ١٥ ألفاً منهم، وفي أثناء ذلك تصدى للفتنة، وذهب به إقدامه إلى حد التوجه سراً إلى زحلة حيث التقى بقائد الجند الفرنسي الذي نزل جبل لبنان، وأقنعه بالعودة إلى قواعده وعدم التقدم إلى دمشق ريثما تحل الدولة العثمانية مشاكلها الداخلية بنفسها. فحال دون حدوث مذبحة كبيرة في دمشق، وكانت وساطته خيراً للجميع.

كان موقف الأمير «عبد القادر» هذا مثار تقدير السلطان العثماني، وإكبار وإجلال ملوك أوروبا وحكوماتها، فمنحه العديد من ملوك ورؤساء الدول الأوسمة والنياشين، اعترافا بموقفه الإنساني النبيل.

كان الأمير مدة إقامته بدمشق يميل إلى التأمل والدراسة والذكر، وكان من حين إلى آخر يشد الرحال للقيام بزيارة أو سفر، حيث زار بيت المقدس والخليل، (١٨٥٧م)، وسافر إلى حمص وحماة (١٨٦٠م)، ثم سافر إلى الإسكندرية (١٨٦٢م) ومنها إلى السويس، ثم جده، وأدى مناسك الحج وزار الطائف والمدينة، وقضى هناك سنة ونصفا في العبادة والذكر والتأمل، وفي ربيع سنة (١٨٦٥م) توجه إلى استانبول للتوسط لدى السلطان عبد العزيز للتخفيف عن المتورطين بالفتنة الطائفية بالشام، ثم سافر إلى باريس ولندن.

أصبح الأمير «عبد القادر» شخصية عالمية تحظى بالتقدير والاحترام في كل مكان تحل به، وقد لقى كل حفاوة وتكريم عندما دعاه خديوي مصر لحضور احتفال

افتتاح قناة السويس سنة(١٨٦٩).

تفرغ الأمير بعد ذلك للعبادة وعمل الخير، والتأليف، والإطلاع، وعُرف بين الناس بعلمه وتقواه وورعه ومعيشته البسيطة، فعاش ما تبقى له من حياته بدمشق معظماً مكرماً من الجميع، حتى اعتبره الصوفيون من أهل الكشف وأنزلوه منزلة ابن عربي والنابلسي.

وفي منتصف ليلة السبت (١٩ من رجب ١٣٠٠هـ/ ٢٦ من مايو ١٨٨٣م) توفى الأمير «عبد القادر الجزائرى» عن عمر يناهز ستا وسبعين سنة، قضاها في العلم والعبادة والجهاد في سبيل الله والوطن.

أخلاق العالم وتصرفات البطل:

كان الأمير «عبد القادر» مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، أقنى الأنف، أشهل العينين، أضبط، يستعمل بيساره ما يمكن أن يؤديه بيمينه، متواضعاً متئداً في مشيته، جهورى الصوت، قوى اللهجة، أجش النغم، وهو مع ذلك كان يتصف بالبشاشة والتأدب ولين الطبع، ويفضل الابتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأبهة، ويميل إلى حياة التقشف والبداوة.

وقد عُرف عنه أنه يكره الجشع والإسراف ويميل إلى التقشف ويقلل من الأكل، وقد يقنع بشيء من الحليب والسويق (الدقيق المطهى مع شيء من الماء والملح) وقد يكتفي في بعض الأحيان بما يصطاده من طريدة، وهذا ما ساعده على اعتدال مزاجه والمحافظة على صحته وقواه العقلية والجسمية إلى آخر عمره. أما لباسه فيقتصر على قميصين أحدهما من القطن والآخر من الصوف، مع عمامة ولحاف من الوبر يغطى رأسه ويلف رقبته، وقد يضع عند الحاجة برنسا أبيض.

أما فيما يختص بسلوكه وتصرفاته، فقد جمع فيها بين أخلاق العالم، وتصرفات البطل، وسلوك زعيم الجماعة وشيخ الطريقة عن سجية، وفي تواضع وبدون تكلف كان متمسكاً بتقاليد أسرته، ودوداً لأهله، معروفا بطاعته لوالديه.

وتتميز نظرة الأمير «عبد القادر» إلى الحياة بتأثره بالعواطف النبيلة، فهو يقدر عاطفة الحب، كما يعجب بالطبيعة، وقد عبر عن كل ذلك في شعر رقيق جميل.

والجانب اللافت للنظر في شخصية الأمير «عبد القادر»هو فروسيته وما يتصل بها من شجاعة وإقدام وحنكة، فقد ولع الأمير منذ شبابه بركوب الخيل، ومارس منذ صغره الصيد، فكان يقضى ساعات طوالا من يومه على ظهر فرسه الذي كان أعز شيء عنده، ولم يكن يشغله عن هواية الفروسية سوى قراءة الكتب والانزواء للعبادة والذكر.

ومن الملامح المميزة لشخصيته تصوفه، وخاصة في دار هجرته، وإن كان قد تشربه منذ طفولته في زاوية أبيه باليقطنة، وتعمقت هذه النزعة في نفسه أثناء سجنه بفرنسا وبعد إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف.

سر عبقرية الأمير:

لقد كانت حركة الأمير «عبد القادر» الجهادية ومحاولته بناء دولة حديثة استجابة موفقة لتجاوز العجز الذاتى الذى عاشه العرب والمسلمون لعدة قرون بعد أن تحطمت قدراتهم الذاتية. فالمحلل لمعطيات التاريخ الجهادى للأمير «عبد القادر» يرى أن هذه التجربة كانت موفقة إلى أقصى حد، بالرغم من قصر مدتها، لأن الأمير استطاع أن يحقق تلاحم العوامل الدينية والثقافية والعسكرية في وضع التصور وتنفيذ القرار. جمع الأمير هذه الأبعاد الثلاثة في سلوكه وثقافته وتصرفاته، حقق بذلك تكامل القوة العسكرية مع نظرة الإنسان المثقف ومع الدافع الديني، فسر عبقرية الأمير عبد القادر يكمن في أنه استطاع أن يكون قائداً عسكريا محنكاً قادراً علي جمع الكلمة، وفقيهاً عارفاً بأحكام الشرع وملتزما بتطبيق الشريعة، وعالما واسع الفكر متسامحاً مع الآخر ومنفتحا علي واقع مجتمعه ومقتضيات عصره.

إن ملحمة الأمير «عبد القادر» الجهادية بالرغم من قصر مدتها الزمنية ونجاح الفرنسيين في وضع نهاية مأساوية لها، إلا أنها في مجال الذاكرة التاريخية للأجيال

العربية كانت وستظل تجربة رائدة للإسهام العربى في صنع الأحداث وتغيير الواقع.

فقد جمعت بين مواجهة العدو وبناء الذ ت في آن واحد، ووافقت بين القيم الحضارية والأحكام الدينية، ومتطلبات للمجتمع وحاجاته، بحيث يتكامل عمل الفقيه في المدينة مع نشاط المرابط في الريف، وتتلاحم مهمة موظف الإدارة في المدينة والجندى في ثكنته، مع طبيعة عمل المشتغل في الحرف والقائم على فلاحة الأرض، وهذا أساس نجاح الأمم وسر تقدم الشعوب.

رب السيف والقلم:

لقد كان الأمير «عبد القادر» فارساً بالسيف والقلم، سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وخط بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

تربى منذ نعومة أظفاره على الأدب العربي القديم وتأثر بشعرهم، وقال الشعر في أغراضه المختلفة من فخر وحماسة وعاطفة نبيلة، يعبر عن عاطفة المحبة والإخلاص التي يكنها لزوجته من خلال هذه الأبيات:

جفـــانى مـــن أم البنـــين خيـــالُ ... فقلبـى جـريح والـدموع سـجالُ
ومـا هـى إلا الـروح، بـل إن فقـدتها ... فـــإن بقـــائى دونهـــا لمحـــالُ
فقولوا لها إن كنت ترضين عيشتى ... فجـودى بطيـف إن يعـز وصـالُ

كما قال شعراً في جمال الطبيعة وتأثيرها على النفوس، وقال القصائد الكثيرة في وصف الأماكن التي زارها أو أقام بها، كما سجل معاركه مع الفرنسيين في أبيات شعر تنطق بطولة وفداء، ومن جميل شعره في الفروسية قوله:

فخيلنـا دائـما للحـرب مسرجـة ... مـن استغاث بنـا نـبشره بـالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً ... وأى عيش لمن قـد بـات في خفـر

***

وله العديد من القصائد في التصوف منها هذه الأبيات:

أنــا حــق، أنــا خلــقُ ... أنــا رب، أنــا عبــدُ
كــل كــون ذاك كــونى ... أنــا وحــدى أنــا فــردُ
أنا الحب والمحبوب والحب جملة ... أنا العاشق المعشوق سراً وإعلاناً

وللأمير «عبد القادر» بعض المؤلفات في التصوف والعقيدة والأخلاق ومن مؤلفاته:

«المقراض الحاد لقطع لسان الطاعنين في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد».

«ذكرى العاقل في تنبيه الغافل».

«المواقف في التصوف» ويتضمن مقدمة وثلاثة أجزاء.

إضافة إلى ديوان شعر صدر فيما بعد بعنوان: ديوان الأمير عبد القادر شرح وتحقيق ممدوح حقى.

وعموماً يمكن القول إن الأمير عبد القادر كان ابن الحضارة الإسلامية التي ظل إسهامها الفكرى ونزعتها الصوفية تتميز بالرقى الروحى والجسدى والعقلى.

عودة البطل:

بعد أن تحررت الجزائر من الاستعمار الفرنسى، وتحقق الأمل الذى ناضل وجاهد من أجله البطل الأمير «عبد القادر الجزائرى»، وباعتباره رمز للنضال وبطل الكفاح، ونظراً لأن ثورته تعد تجربة تاريخية تؤكد استمرارية الدولة الجزائرية، بادرت حكومة الجزائر المستقلة سنة ١٩٦٦م إلى نقل رفاته، من دمشق إلى الجزائر، في جو من الاحتفالات الوطنية المدوية والمهرجانات الشعبية الصاخبة، ليعود المجاهد إلى الأرض التي شهدت جهاده وكفاحه لأكثر من خمسة عشر عاماً، لترقد روحه في أمن وسلام في ثرى البلد الذي عاش ومات يناضل من أجله.

***

عشرة أولاد وست بنات:

تزوج الشيخ «محيى الدين الحسينى» من أربع نساء هن: وريدة ولدت له محمد العبد ومصطفى، والزهراء ولدت له عبد القادر «الأمير» وخديجة، وفاطمة ولدت له الحسين، وخيرة ولدت له المرتضى.

أما الأمير «عبد القادر» فقد ارتبط في أول الأمر و «للا خيرة» التي أشار إليها في شعره بـ (أم البنين) وعندما استقر بالشام كان له أربع زوجات، وكان مجمل أولاده من بنين وبنات ستة عشر، منهم عشرة ذكور، وهم: محمد، محيى الدين، الهاشمي، إبراهيم، أحمد، عبد الله، علي، عمر، عبد الملك وعبد الرازق، بالإضافة إلى ست إناث(*).

(*) د. إسماعيل إبراهيم، «شخصيات صنعت التاريخ، فى لبطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١٢٦.